

الإيديولوجيا وعبقورية الفشل

د. محمد عبد العزيز ربيع

الإيديولوجية هي رؤية مجتمعية شمولية، أو نظرية فلسفية تستهدف إعادة هيكلة المجتمع من خلال إعادة تأسيس العلاقات الاجتماعية والسياسية وأحيانا الاقتصادية فيه على أسس جديدة. وهذا يتطلب في كل الحالات والأحيان إعادة هيكلة الثقافة الشعبية السائدة بما يتجاوب مع التطلعات والتحديات الإيديولوجية. ويمكن تصنيف الإيديولوجيات عامة إلى ثلاثة أنواع: إيديولوجية اجتماعية سياسية (sociopolitical)، وإيديولوجية اجتماعية اقتصادية (socioeconomic)، وإيديولوجية اجتماعية ثقافية أو إيديولوجية دينية (sociocultural).

يوجد في كل مجتمع إنساني رجال ونساء يميلون لعمل الخير دوماً، ويتحلون بأخلاقيات عالية وحسي إنساني مرهف، كما يوجد رجال ونساء يميلون لعمل الشر دوماً، ويفتقدون الإحساس بإنسانية الآخر. لكن على الرغم من ذلك، إن من الممكن ومن المحتمل أيضاً أن يتحول الشريرون إلى رجال ونساء تحب الخير للغير ولا تتواني عن مساعدتهم لتحقيق أهدافهم النبيلة وتجاوز المحن التي قد يمروا بها. لكن من شبه المستحيل أن ينجح المجتمع أو أي فرد منه في إقناع الخيريين من الناس على التحول إلى شريرين دون جرهم أولاً على الإيمان بعقدية معينة والالتزام بمبادئ دعوتها التي تدعو إلى التضحية في سبيلها.

تجسد الفكرة القومية الإيديولوجية الاجتماعية السياسية، وهي فلسفة تقوم على الإدعاء بوجود شعوب تتميز بالنقاء العرقي والتمتع بثقافة واحدة، والتواجد الجغرافي في أمكنة محددة لقرون موعلة في القدم، وأن من حق كل شعب أو قوم أن يقرر مصيره بنفسه، وأن يقيم دولته الخاصة به، وأن يتمتع بالسيادة الكاملة على أراضيه ومواطنيه. ولقد جاء ميلاد هذه الفلسفة في أواخر القرن الخامس عشر في إسبانيا، وذلك بهدف بناء دولة موحدة في مقدورها القضاء على الوجود العربي والإسلامي واليهودي في البلاد. ومن إسبانيا سافرت الفكرة القومية إلى بقية أجزاء أوروبا حيث نجحت في إقامة الدولة القومية الحديثة هناك، ومنها انتقلت تلك الفكرة في القرنين الأخيرين إلى كل شعوب العالم وقبائله وطوائفه متنسبة في إقامة أكثر من 200 دولة.

مما لا شك فيه أن الفكرة القومية استطاعت أن تبني دولا وتوحد شعوبا عديدة، وأنها نجحت أحيانا في تحقيق انجازات ملموسة على الأرض. لكن سجلها يشير إلى أنها مارست التفرقة العنصرية ضد الغير بوجه عام، وقامت في حالات كثيرة بارتكاب جرائم القتل والإبادة الجماعية ضد الأقليات. وفي الواقع، لا يمكن لأي فلسفة تقوم على الإيمان بالتميز عن الغير أن تهتم باحترام حقوق الآخرين أو تعاملهم على قدم المساواة. ولهذا فشلت الدولة القومية حيث وجدت في تحقيق انجازات وطنية مع الحفاظ على إنسانيتها، كما أنها سمحت في الكثير من الحالات باستيلاء قيادات فردية استبدادية على الحكم وقيامها باستباحة حقوق المواطنين والوطن. وفي ضوء ما يعيشه عالم اليوم من عولمة ثقافية واقتصادية، وقيام منظمات عالمية عديدة للدفاع عن حقوق الإنسان والترويج للديمقراطية، وتشريع مبدأ التدخل في الشؤون الداخلية للدول حماية لشعوبها والأقليات فيها من بطش حكامها، فإن الدولة القومية وإيديولوجيتها الاجتماعية السياسية فقدت صلاحيتها ومبررات وجودها.

تعتبر الماركسية أهم الإيديولوجيات الاجتماعية الاقتصادية، وهي الفلسفة التي قالت بأن تغير أنماط الإنتاج يؤدي بالضرورة إلى تغير الهياكل والعلاقات الاجتماعية، وأن الرأسمالية كنظام إنتاج كان مسئولا عن انتشار ظاهرة الاستعمار وتبلور الطبقة في المجتمع. كما قالت تلك الفلسفة بأن الطبقة تقود بالحتمية إلى وقوع صراع في المجتمع، وأن الوسيلة الوحيدة لحل ذلك الصراع تكمن في القضاء على مسببات الطبقة، وخلق مجتمع اشتراكي يقوم على إلغاء الملكية الخاصة لعوامل الإنتاج وتحقيق المساواة بين الناس. وبالرغم من نجاح الماركسية في نشر التعليم، وتحقيق انجازات غير عادية في ميادين الصناعات الثقيلة وتكنولوجيا السلاح والبحوث العلمية، واحتواء الفكرة القومية ونعرتها العنصرية في الاتحاد السوفييتي، إلا أنها فشلت في تحقيق الرفاهية الاجتماعية للناس وضمان حقوقهم وصيانة حرياتهم. ولذا شهد العقد الأخير من القرن العشرين انهيار الماركسية وفقدانها ما كانت تتمتع به من مصداقية وجاذبية، وتفكك الاتحاد السوفييتي أكبر الدول التي قامت بناء على الرؤية الفلسفية الماركسية.

يقوم الدين كفلسفة اجتماعية ثقافية على الإيمان بمقولات غيبية لا يستطيع إنسان أن يثبت صحتها، ولا يستطيع علم أن يبرهن على وجودها، مما يجعل الدين قضية إيمانية غير خاضعة للمنطق العقلاني المؤسس على التجربة والملاحظة والبرهان العملي. وبالرغم من أن الدين حاول ونجح في العديد من الحالات في توحيد أتباعه وتعزيد أواصر التعاون فيما بينهم، وبث روح جديدة في المجتمع المؤمن أكثر صدقا ومصداقية وعدلا، إلا أنه كان دوما سببا للنزاع والصراع وأداة للكبت. إذ أن الادعاء بصدق مقولاته ومعتقداته وثباتها، واتجاهه لفرض وجهة نظره وطوقسه على الآخر قاده إلى تبرير التفرقة ضد الغير،

والتسبب في زيادة حدة الخلافات والصراع في المجتمع الواحد وبين المجتمعات ذات الديانات المختلفة، وعدم التورع عن تكفير الآخر وارتكاب الجرائم بحقهم.

إضافة إلى النماذج السابقة، هناك نموذج آخر يقوم على تحالف القومية مع الدين في بناء دولة شوفينية عنصرية تجسد التفرقة على الأرض بأبشع صورها، وتمارس الإبادة ضد الغير بلا وعز. ففي القرن السادس عشر ظهر هذا النموذج في إسبانيا، وحقق مبدئيا نجاحا باهرا في القضاء على الوجود العربي والإسلامي واليهودي في البلاد، لكنه فشل حتى في الحفاظ على ما كان قد تحقق في عهود أسلافه من نهضة علمية بالرغم من قيامه بنهب خيرات أمريكا اللاتينية لقرون. وظهر في القرن العشرين النموذج الإسرائيلي في فلسطين، حيث نجح نجاحا كبيرا في الاستيلاء على أكثر من ثلاثة أرباع البلاد والتخلص من غالبية سكانها وتزييف وعي الرأي العام العالمي لعقود. إلا أن الفشل لن يتخلى عن النموذج الإسرائيلي الذي دخل منذ بضع سنوات حالة من التراجع والغيوبة الواعية، بينما يتزايد عدد الأعداء من حوله ويصحو العالم على أكاذيبه. إن الخلط بين القومية والدين يجعل الفشل حتميا ومضاعفا، وذلك لأنه لا يمكن تعايش القومية كحركة علمانية مع الدين كحركة تقوم على الإيمان بغيبيات تتعارض مع العلم ولا تقبل العلمانية.

ويعود السبب الرئيسي في فشل الإيديولوجية بوجه عام لجمود قواها الفكرية وهياكلها التنظيمية وتخيالاتها المستقبلية، وإلى قيامها على فرضيات نظرية تعتبرها حتميات تاريخية، وادعاء حقائق علمية ليست إلا مفاهيم غيبية لا علاقة لها بالعلم أو الواقع، والإيمان بواجب بناء نماذج حياتية تتعارض كلياً أو جزئياً مع طبع الإنسان وطبيعة البيئة التي نشأ فيها، وارتكابها جرائم في حق الإنسانية لا يمكن السكوت عليها طويلاً. وفي الواقع، تسبب الدين والقومية والماركسية في قتل مئات الملايين من الناس باسم عقائد ونظريات ومقولات لم تستطع تحرير الإنسان من الكبت أو الظلم أو الحاجة أو البؤس أو المرض.

د. محمد عبد العزيز ربيع

للتشر يوم 2007-7-17

professorrabie@yahoo.com

www.yazour.com

